الموت ، وقيثارة تنبه روحك من غيبوبة الموت إلى يقظة الحياة .

إن المليك الذي وقّع على الأمر بإشهار الحرب التي اغتالتك يمشي اليوم في جنازتك مطأطىء الرأس ، كالح الوجه ، ملجوم اللسان . أتراه آسفاً عليك ؟ أم نادماً على ما فعل ؟ أم شاكراً ربّه لأنّك قضيت فبقي له تاجه وصولجانه ؟ أم تراه لا آسفاً ولا نادماً ولا شاكراً بل ماشياً كما تمشي الملوك إذا قضت الحاجة أن يمشوا ، إن في جنازة ، أو في عرس ، أو في مهرجان .

والوزير الذي انتشلك من حضن أمك وأبيك ، وأرسلك إلى ميدان القتال لتفتدي شرف بلادك بدمك ، لتناضل عن حقوق الحق ، لتسند البائس والضعيف ، لتطلق العبد من عبوديّته وتحفظ للحرّ حريته ؛ لتسحق الاستبداد ، ولتضع الحق موضع القوة — إن ذاك الوزير نفسه يسير اليوم مع أعوانه من الوزراء خلف نعشك صامتاً مطرقاً .

فماذا عساه يقول في نفسه ؟

أتراه يذكر يوم صاح بشعبه « يا للرجال ! » فهبت الرجال إلى السلاح وسحقت أعداءه سحقاً ؟ أم تراه يقيس في فكره مساحة الأرض التي ضمّها إلى حدود مملكته ، ويعدّ النفوس التي أضافها إلى الخاضعين لسلطة بلاده ؟ أم أنه يهيّء خطاباً جديداً يلقيه في البرلمان عن الخسائر الفادحة التي تكبدّتها